

التوبة.. مستلزماتها وآثارها



«اهتم الإسلام اهتماماً خاصاً بمسألة توبة الإنسان إلى ربه.. فقد حث الآيات الكريمة والروايات الشريفة على التوبة لدرجة أمر الله سبحانه الجميع بها بقوله عز من قائل: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور/ 31). كما اهتم الأنبياء والأولياء والصالحون بها وإن اختلف نوعها لدى كل منهم. فقد ورد في الحديث الشريف مثلاً: "التوبة جبل الله ومدد عاينته، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر، وتوبة الأصفياء من التنفس، وتوبة الأولياء من تلويح الخطرات، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب...". وقال (ص): "توبوا إلى الله فإنني أتوب إلى الله في كل يوم مائة مرة". فما هي التوبة؟ وكيف يتوب المرء إلى ربه؟ معنى التوبة: قال تعالى: (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْزَلَ مِنْ عَمَلٍ مِّنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنزَلْنَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (الأنعام/ 54). وقال سبحانه (إِنَّ زَمَّامَ التَّوْبَةِ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...) (النساء/ 17). وقال أيضاً: (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ...) (الزمر/ 54). وقال

النبي (ص) في معرض حديثه مع أصحابه عن التوبة: "ولولا أنكم تذنبون فتستغفرون . . لخلق
الخلق خلقاً حتى يذنبوا ثم يستغفروا . . فيغفر لهم. . إن المؤمن مفتن تواب". فالواضح إذاً
من خلال الكثير من الآيات والروايات أن التوبة أوبة وإنابة، وهي عبارة عن تراجع الإنسان
عما اقترفه وأقدم عليه من فعل سيء، قبيح، يمقته . . ولا يرضاه. . فيندم الإنسان على فعلته
تلك ويتراجع عنها منيباً إلى ربه، تائباً من فعلته، محاولاً التخلص من التبعات والآثام
التي لحقت ولزمتها، فيلجأ إلى ربه يرجوه مستغفراً أن يمحو عنه سيئته التي اقترفها،
ويغفر له الذنب الذي سجل عليه ولحقه، واعداءً ربّه بأن لا يعود إلى الذنب ثانية. . ومن
الطبيعي عند المؤمن الرؤوف بعباده أن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له، إذ إن التائب حقيقة
لا يتوب ولا يقدم على التوبة إلا إذا تميز ببعض المواصفات، فهو: 1- يؤمن حقيقة بال
واليوم والآخر وبمراقبة الله له وتسجيله السيئة عليه، وإلا لم يبال بما فعل ولما اهتم ورجع
إلى ربّه يستغفره. 2- يؤمن برحمة الله ولم ييأس منها، فهو الربّ الغفور الرحيم، يغفر
له ذنبه ويرحمه لسوء حاله. 3- يقر بين يدي ربّه بحقيقة العبودية لذات الربوبية. قال
تعالى: (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلْإِنَّ رَبَّهُ يَسْتُوبُ إِلَيْهِ اللَّاهُ مَتَابًا)
(الفرقان/ 71). كيفية التوبة: في الحقيقة كثيراً ما يذنب الناس ويتوبون ثم لا تقبل
توبتهم، وما ذلك إلا لابتعادهم عن شروط التوبة الواجب توفرها لقبول توبتهم من ترك الذنب
وعدم تكراره أو الإصرار عليه والندم والاصلاح وغير ذلك. . فرفض التوبة إنما يعود لاستمرار
حالة السوء وحالة الجهالة التي عبرت عنها الآية الكريمة، وغالباً ما يقارن حالة الجهالة
تكرار الذنب والاصرار عليه وعلى المعصية، أو تأخذ صاحبها العزة بالاثم، أو على الأقل
يقارن الجهالة قلة السعي أو عدمه للتخلص من التبعات والآثار والعواقب السلبية والوخيمة
للمعصية السابقة. ولذا ورد في الحديث الشريف: "التائب إذا لم يستن أمر التوبة فليس
بتائب: يرضي الخصماء، ويعيد الصلوات، ويتواضع بين الخلق، ويتقي نفسه من الشهوات، ويهزل
رقبته بصيام النهار". وعن النبي (ص): "إذا تاب العبد ولم يرض الخصماء فليس بتائب. .
ومن تاب ولم يغير مجلسه وطعامه فليس بتائب. . ومن تاب ولم يزد في العبادة فليس بتائب. .
ومن تاب ولم يغير لباسه فليس بتائب. . ومن تاب ولم يقصر أمّله ولم يحفظ لسانه فليس
بتائب. .". وعن الإمام علي (ع): "إن الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة
معانٍ: أو لها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن
تؤدي إلى الخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملكس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعمد إلى كل
فريضة (عليك) ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه
بالأحزان حتى تلتصق الجلد بالعظم. . والسادس أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقت حلاوة
المعصية. .". وبالعودة إلى الآيات نرى أنها تقرر التوبة بأمور: الاصلاح، العمل الصالح،

الإيمان، كما في قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا...) (مريم/60). (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا...) (الفرقان/70). (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) (الفرقان/71). (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ...) (المائدة/39). (.. ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ...) (الأنعام/54). (وَأَنِزْنِي لِعَذَابِنَا لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) (طه/82). (.. ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا...) (الأعراف/153). التسوية بالتوبة: فالتوبة المقرونة بالإيمان والصلاح والاصلاح والعمل الصالح والهداية فضلاً عن الاسراع بها هي التي يتقبلها الله سبحانه: (.. ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ...) (النساء/17)، وقد ورد في المأثور: "عجلوا بالصلاة قبل الفوت، وبالتوبة قبل الموت". ومن لم يسارع إلى التوبة دخل في عداد المسوفين لها، خصوصاً إذا اخرها حتى يدركه الموت أو يحضره، وهنالك ليس معلوماً أبداً أن تناله رحمة الله بالتوبة لأنّه قد خلاى بين نفسه وبين الركون إلى حالة الجهالة التي انغمس فيها ومعها بالسيئات والشهوات والملذات في غفلة عن ذكر الله وذكر الآخرة، وكذلك عندها يُنسى من رحمة الله والعباد بالله، فلا ينفعه عندها الانتباه، لحظة الموت ولحظة لا ينفع الندم. قال تعالى: (وَالَّذِينَ سَتُّوا بُعْدَهُ لِّلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبِيتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمْوَتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ...) (النساء/18). فعندها ليس لذلك الإنسان إلا (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الْسَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (الزمر/58-56). آثار التوبة: لعل من أهم وأنفع آثار التوبة على التائب أمرين: ستر الله على التائب، وتبديل سيئاته حسنات.. قال تعالى عن دعاء الملائكة قولهم: (فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ... * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ...) (غافر/7-8). وقال تعالى عن التائبين: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (الفرقان/70). وعن النبي (ص): "من تاب تاب الله عليه، وأُمرت جوارحه أن تستر عليه، ويقاع الأرض أن تكتف عليه، وأُنسيت الحفظة ما كانت تكتب عليه". وعنه أيضاً (ص): "يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يوقف بين يدي الله عز وجل فيكون هو الذي يلي حسابه.. حتى يوقفه على

سيئاته كلها، كل ذلك يقول: أعرف، فيقول سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم،
أبدلوها لعبدي حسنات، فترفع صحيفته فيقولون: سبحان الله! ما كان لهذا العبد سيئة واحدة".
وعن الصادق (ع): "إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله تعالى فستر عليه في الدنيا
والآخرة". وعن الرضا (ع): "التائب من الذنب كمن لا ذنب له". وبعد هذا هل للإنسان عذر في
عدم الإسراع لإجابة دعوة ربه في قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا
إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...) (التحريم/ 8). خصوصاً وأنّه ورد في معناها: "أن
يتوب الرجل من ذنب وينوي أن لا يعود إليه أبداً" وأنها "ندم بالقلب واستغفار باللسان
والقصد على أن لا يعود". المصدر: مجلة نور الإسلام/ العدد 47 و48 لسنة 1994م